

بقلم: فؤاد علي آل مكي

تخرج أحمد ذلك الشاب الميافع من الجامعة وكله أمل أن يلقي الوظيفة المناسبة له، وبعد مرور فترة من الزمن وبحمد الله استطاع أحمد الحصول على الوظيفة التي كان يأمل، ولكن المشكلة كان في مقر الوظيفة فلم يكن في نفس المنظمة التي يقطن فيها أحمد. لذلك اضطر أحمد في أثناء تلك الفترة للعيش مع مجموعة من الشباب برغم اختلاف ميولهم وتوجهاتهم ¹ إلا أن تواجدهم في نفس المنظمة أجبر صديقنا أحمد للسكن معهم.

بعد فترة كثرت أعباء أحمد الوظيفية ولم يستطع التركيز في عمله لذلك قرر الخروج في سكن منفرداً ولو لفترة ريثما يلقي زملاء آخرين، وقام باستشارة أهله إلا أن الأهل رفضوا ذلك وأصرّوا على بقائه مع نفس المجموعة. حينها دار بخلد أحمد الكثير من الهواجس والأفكار حول مساحة الحرية التي أتاحتها الأهل له سواء في أيام طفولته أو في هذا الموقف بالذات.

نرى من خلال هذه القصة مدى الحدود التي أقتضاها الأهل لصديقنا أحمد، فالبرغم ² من معاناته إلا أنه لم يستطع أن يقرر ما يكون الأنفع له في تلك الفترة بالذات. وهذا يفضينا إلى التأمل والتفكير في سؤال مهم يُطرح " مامدى تأثير الحرية داخل الأسرة في مسيرة حياة الأبناء". وبما أننا تطرقنا في مبدء الحوار بين الأبناء والأبناء عبر بوابة الآيات القرآنية الدالة على ذلك، لذى سيكون محور الحرية في علاقة الأباء والأبناء عبر ثلاثة نقاط، أولاً: الحرية منش ³ لتأصيل الثقة في النفس. ثانياً: الحرية دافع نحو العطاء. وأخيراً تجربة فضاء الحرية داخل الأسرة يقدم تجارب حقيقيه للفرد.

تأصيل الثقة بالنفس

حينما يربو الطفل على مجموعة من العادات الحميدة التي تفتح له آفاق العلم والمعرفة فأُن ذلك الطفل حتماً سيكون ذا شأن ومكانه مستقبلية مرموقة. ويساعد على هذا الأمر وجود جو أسري يغذي ⁴ مجموعة من المفاهيم السليمة، ومن هذه المفاهيم مفهوم الحرية. ولكي لا تكون كلمة الحرية ومحتواها وبالمأ على الشخص ذاته ومن ثم على المجتمع لابد لنا من فهم معنى الحرية ولو بشكل يسير. فقيول حيدر حسين عبد السادة في معنى الحرية ⁵ " الحرية: مفهوم ذو شفافية خاصة تتميز عن غيرها من المفاهيم، وهذه الشفافية هي التي تجعل النفوس تحلق معها حينما تطلق، وتجعل القلوب تهفو إليها وتأنس الأذهان بها. فهو من المفاهيم التي لا يعني بإدراكها إنسان بغض النظر عن دينه، ومذهبه، وجنسه بل وحتى عمره، ولذلك فأنت ترى الطفل الذي لم تكتمل مداركه بعد ي جيب حين يويخ على شيء أتاه، ولم يكن مما يرتضيه الكبار بأن ذلك مقتضى حريته وإن كان لا يعبر عن ذلك باللفظ المذكور إلا أن تعبيراته - من قبيل هذا شأني أو رأيي أو غيرها - مما يدل على إدراكه للحرية" ¹

فيتضح لنا من خلال هذه الكلمات أن وجود مساحة من الحرية لدى الأبناء في اختيار مجموعة من الأمور الخاصة بهم يساعد بشكل مجمل في تكوين نوع من الثقة بالنفس في أن الخيار الذي قام به الفتى أو قامت به الفتاة وإن لم يكن صحيح بالكامل إلا أنه أعطى الثقة في نفس الفرد على حرية الاختيار وتحمل المسؤولية على ذلك.

الحرية ... الدافع نحو العطاء

لاشك أن في إعطاء مساحة الحرية للأبناء في اختيار مسلكهم الخاص سيعطي الدافع والمحفز للعطاء والانتاج. فعلى سبيل المثال حينما يختار الأب التخصيص الذي يناسب رغباته وطموحاته المستقبلية فإن ذلك سيكون محفزاً قوياً له لأثبات جدارته وأن مساحة الحرية التي أعطيت له أوجدت الدفعة المعنوية التي تحتاجها الأبناء من الأباء في العادة.

فنرى في الغرب مثلاً أن الأسر تعطي الحرية التامة للأبناء لإختيار التخصص المناسب لهم حسب ميولهم وتطلعاتهم، فنجد أن أغلب الطلبة الخريجين حديثاً هناك لم يحددوا مسارهم بعد كي يعطوا أنفسهم الفرصة ليروا أي تخصص يناسبهم بعد أخذ مجموعة من المواد. وهذه أحد العقد التي تواجه شبابنا في هذه الأيام فنجد الطالب يقضي سنوات من عمره في تخصص ما وبعد فترة قرر تغييره، غير أنه للسنوات التي ضاعت من عمره.

المتجربة هي من يصنع الفرد

مرور الإنسان بمراحل مختلفة ومحطات توقف عديدة في حياته عادة ما يكون السبب الرئيس في تنمية مهارات الفرد واكتساب قدرات أفضل. ولعل مسألة الحرية حينما تتواجد داخل الجو الأسري ومع تعدد التجارب فإن ذلك سيصقل قوة وعزم الفتى. وفي الغالب يواجه ذلك تأطير من ناحية الأباء لدور الأب داخل الأسرة وأعطاء مساحات من الحرية والتي من قد تفضي إلى مهانة الفرد وعدم مقدرته على المواجهة والتصدي للمشكلات التي قد تواجهه في المستقبل على الصعيد الأسري والاجتماعي والوظيفي.

وفي الختام لابد أن نعي أن لكل شيء في هذا العالم فوائد ومضار، فحينما يساء فهم وتفسير معنى الحرية لدى الشباب فإن ذلك سيكون وبالاً على الأهل والمجتمع بشكل عام ومن ذلك ما نراه لدى بعض من شبابنا وشاباتنا من تمادي في مفهوم الحرية. ففي نظرنا أن الحرية هي ما تتعدى على حريات الآخرين وفق نسق ومساحة معينة تتيح لك ممارسة حريتك. وقد بينا أهمية وجود الحرية داخل الجو الأسري من خلال ثلاثة نقاط وهي الحرية تأصيل للثقة بالنفس. ثانياً الحرية دافع نحو العطاء. وأخيراً تجربة الحرية هي من تؤصل مفهوم الحرية الصحيح لدى الفرد.

1- مجلة النباء- مفهوم الحريات في الشرائع السماوية والأرضية - حيدر حسين عبد المسادة